

مستقبل الصحافة المكتوبة وفن الخط



في نهایر شهر ديسمبر 2012، أصدرت مجلة (نيوزويك) الأسبوعية الأمريكية الشهرية النسخة الورقية الأخيرة من هذه المطبوعة، التي صدر عددها الورقي الأوّل في العام 1937، والتي قررت إدارتها، عبر محررة المجلة (تينا براون)، إبتداءً من مطلع هذا العام، تحويلها إلى مطبوعة رقمية تصدر بعنوان (نيوزويك جلوبال)، وهو ما قد يمثل إشارة البدء لهذا النوع من التحول في تاريخ الصحافة المطبوعة بين عصرين من العصر الورقي إلى العصر الرقمي.

حين طالعت العدد الورقي الأخير للمجلة، تأمّلت تاريخاً مطولاً من كفاح الصحافة الأمريكية، وما أثارته أو اهتمت به على مدى نحو سبعة عقود ممثلاً في موضوعات المجلة التي اختارت نماذج منها لتغلق بها نهاية رحلة طويلة حفرت خلالها لنفسها مكانة مميزة كمجلة أسبوعية سياسية شاملة، تقدم تحليلًا عميقاً "للمواراء والخبر في الولايات المتحدة والعالم، مع زميلتها الأسبوعية (Time)، قبل التحول إلى الشكل الرقمي الجديد بكل ما يعنيه ذلك من دلالات على التحولات الثقافية والتكنولوجية التي يشهدها العالم الغربي. لكنني في أثناء تصفح المجلة، مررت في ذهني أسئلة عديدة عابرة، عن مستقبل القراءة في عالمنا العربي، ومدى تأثيرها بالوسائل الإلكترونية الجديدة، وكيف يمكن الانتقال إليها في مجتمعات لا تزال

ترتفع بها نسب الأُمّية بشكل كبير. ومع ذلك، فقد كانت لدى شواهد تقول إن "الثورة العالمية أو العولمية للوسائل القرائية الجديدة مثل الحواسيب الشخصية (الكايندر) و(الآيبيود) أو الحاسوبات اللوحية وسواها، أصبحت بدورها واقعاً يومياً جديداً في العالم العربي بعد التوسيع اليومي في استخدام المستهلكين العرب لتلك الوسائل وخصوصاً من الشباب. - دار نشر عربية تحول للرقمية تذكّرت واقعة صغيرة شبيهة بما حدث للنيوزويك. فعلى سبيل المثال، خلال الدورة الماضية من معرض الكويت للكتاب، كنت أبحث عن ترجمة عربية لرواية تركية علمت أنّها نشرت في إحدى دور النشر السورية. وحين سألت، أخبرني أحد الموجودين من الناشرين السوريين أن هذه الدار توقفت عن النشر الورقي قبل عام، وتحولت إلى النشر الرقمي فقط. هذه الدار هي دار قَدْمُس للنشر، وهي دار اختصّت في نشر أعمال معرفية وأعمال أدبية مترجمة عن لغات عدّة بينها التركية. ودارت في ذهني أسئلة عن مدى وجود قُرّاء للوسائل الرقمية في العالم العربي يجعل ناشراً عربياً يقرّر التحول للنشر الرقمي. بطبيعة الحال، هناك بعض المؤشرات الأولى التي يمكن أن نرى من خلالها أنّ هناك بالفعل لوناً من الإقبال على القراءة الإلكترونية، من خلال الزيادة الرهيبة في عدد مستخدمي أجهزة الآيفون والآيپاد والأندرويد التي تمتلك إمكانات تحميل برامج إلكترونية عديدة بينها تلك المختصة بتحميل الكتب الإلكترونية، إضافة إلى دخول عدد كبير من المستخدمين العرب الذين تقدر بعض المصادر أعدادهم بنحو 45 مليون مستخدم وهي تقريباً نسبة تعادل خمس عدد سكان الوطن العربي. ومع ذلك، فالرقم مرشح للزيادة، خصوصاً أنّ المنطقة العربية واحدة من أكثر المناطق في العالم من حيث نمو عدد مستخدمي الإنترنت (هناك تقرير من إعداد عمر خرسه يقدر هذه النسبة بنحو 2500 في المائة خلال الفترة من العام 2000 وحتى 2011). من جهة أخرى، فإنّ إحصاءات أخرى قدرت معدلات الإستخدام اليومي للإفراد العرب للإنترنت ما بين ساعتين ونصف إلى أربع ساعات ونصف، وهي نسبة مرتفعة. وإذا ما تمّ ترشيد استخدام هذه الفترات الزمنية وتوجيهها نحو القراءة، فالنتيجة ستكون جيّدة حتماً. - مزايا وعيوب عبر الإنترنت حاولت الإتصال بالدكتور زياد مني الذي أكد لي صحة ما سمعته عن تحول دار النشر التي يديرها من النشر الورقي إلى الإلكتروني، فقلت له: "ألا ترى أنّ هذه خطوة مبكرة بعض الشيء في مجتمعات لا تزال تعاني من قلة نسب الإقبال على القراءة؟"، فقال: "لا شك في وجود تهيب حقيقي لدى كثير من الناس من التقنية الجديدة، خاصة لدى الجيل المتقدم على الشباب، لكن مجرد التواصل مع هذا النمط من الإنتاج يمنحك القارئ فرضاً غير محدودة، وهو يتمتع بمميزات كثيرة لا تتوافر في النشر الورقي، وعلى غير ما يتوهّم البعض". سأله أن يوماًًـ لي بعض تلك المزايا التي شجّعته على اتخاذ مثل هذا القرار، فقال: "النشر الإلكتروني، إن أُعدّ على نحو صحيح، وليس في هذا الأمر أسرار

وإذّما معرفة المتطلبات التقنية الضرورية، للوحات القراءة، يمنح القارئ فرصة تصفح أي كتاب يُبتاع، لكن مع خواص مهمة للغاية منها على سبيل الذكر لا الحصر، وضع علامة إلكترونية أو أكثر في صفحة القراءة، وتمييز نصوص محددة وكتابة ملاحظات تبقى في موقع الكتاب المعنى، وتغيير حجم الخط (الفونت)، حيث يتغير وقتها عدد صفحات الكتاب الذي يمكن أن يحوي رسوماً وكل ما يمكن توافره في الكتاب الورقي. إضافة إلى ذلك، فإذا كان القارئ تغيير لون صفحة القراءة والتحكم في درجة سطوعها، وكذلك خاصية قلب لون الأحرف والخلفية للقراءة الليلية، حيث يتحول الحرف إلى اللون الأبيض والخلفية إلى اللون الأسود. في الحقيقة، إن النشر الإلكتروني للوحات القراءة (Tablets Reading) لا حدود له، ولا شك في أن المستقبل سيحمل المزيد من التطور الإيجابي في هذا المجال. - مخازن رقمية بلا وزن من الأمور الأخرى التي تميز النشر الإلكتروني، مقدرة لوحة القراءة على تحميل عدد كبير جداً من الكتب، وبكل اللغات، حيث تحول اللوحة إلى مكتبة متنقلة، خفيفة الوزن، غالية في الأنقة. وكلما ازدادت المنافسة، انخفض سعر الأجهزة كما نرى الآن، إضافة إلى ظهور أحجام مختلفة منها (Mini Ipad) التي تحوي المميزات ذاتها، لكنها أصغر حجماً وأقل وزناً.. وسراً. في الوقت نفسه، فإن التطبيقات الأخرى المتوافرة لوضعها في لوحة القراءة ومن ذلك على سبيل المثال مختلف القواميس والمعاجم والمنراجع ودخول الإنترنت... إلخ، توافر مكان عمل (الكتروني) مميز، وفي الوقت ذاته متنقل للشخص لا يمكن أن يتوافر في وسيلة أخرى". لكن الدكتور زياد منى يستدرك موضحاً أن المزايا لم تكن هي وحدها السبب في التفكير في هذه الخطوة، بل وجود معوقات كثيرة في إنتقال الكتاب العربي بين الدول العربية، ويقول: "من أكبر المشكلات التي تواجه انتشار الكتاب العربي، إضافة إلى ضعف محتواه وضحلة الأبحاث العلمية، عدم وجود شركة توزيع كتب في بلادنا. فعلى سبيل المثال، إذا رغبنا نحن في شركة قدموس إرسال كتب إلى الأردن، علينا نقل النسخ إلى لبنان، وتسليمها لشركة توزيع متخصصة في بيروت، ترسلها إلى الأردن، عبر سوريا! لا شك في أننا نتحدث هنا عن عالم سريالي، لكنه القائم والمتحكم فينا. معنى ذلك أن على القارئ انتظار معارض الكتب كي يحصل على كتاب صدر في بلد عربي قريب أو بعيد، أو دفع ثمنه أضعافاً بسبب كلفة النقل البريدي المرتفعة إن كان في عجلة من أمره. ويضيف إلى مشكلة إنتقال الكتاب العربي مشكلة أخرى هي قرصنة الكتب، موضحاً "أنه لا وازع ضميرياً ولا مانع قانونياً في بلادنا، يعقوب من يستحوذ على ممتلكات غيره الفكرية على نحو غير قانوني (والتعبير الشعبي: السرقة). نعم، هناك قوانين في بلادنا تعاقب الجاني، لكن الحركات والثورات التي تشهدنا بلادنا هي إحدى نتائج غياب حكم القانون، إضافة إلى وضع قوانين جائرة تساعد الغني ضدّ الفقير. أمّا النشر الإلكتروني، وفق تجربتنا الممتدة سنوات

طويلة مع (الكتاب العربي الإلكتروني)، تؤكد إستحالة قرصنة أي كتاب من الموقع وعدم إمكانية نسخه... إلخ، هذا إضافة إلى أن "الإصدار الإلكتروني يتجاوز الجغرافيا والسياسة والفكر، ومزاجات أجهزة الرقاقة في بلادنا، وكذلك سرعة الحصول عليه بعد دقائق قليلة من ظهور في موقع الدار". ويوضح الدكتور منى أن "لقاء جمعه بأحد المثقفين العرب المهتمين بمشروعات رقمنة الثقافة العربية وهو مؤسس شركة صخر محمد الشارخ جعله يبدأ التفكير في الموضوع، وذلك في منتصف التسعينيات في القاهرة. المنعطف الذي أدخلني عالم النشر الإلكتروني في مطلع التسعينيات كان ذلك اللقاء، المصادفة، التي كانت خيراً من ألف ميعاد، عندما سألني الأخ الكبير أبو فهد: هل أنت على استعداد لوضع إصدارات داركم (قادمُس) في موقع شركة (صخر) للقراءة مجاناً؟ الطلب فاجأني. أنا القادم حديثاً إلى بلادنا، بعد إقامة تزيد عن ربع قرن في ألمانيا، حيث لا شيء مجانياً في تلك المجتمعات الإستهلاكية؛ لكنني لم أتردد في قبول ذلك، مع أنّ معلومتي في ذلك الوقت عن النشر الإلكتروني كانت لا شيء. هناك التقيت مع مجموعة من خيرة الشباب العربي المتخصصين في عالم النشر الإلكتروني، من مصر ولبنان والعراق وفلسطين وغيرها من أقطار عالمنا العربي المنكوب. وبدأت التجربة الصعبة، إلا أنّنا نجحنا في نهاية المطاف في التغلب على المصاعب والمشكلات الناتجة من جهلي بقواعد النشر الإلكتروني وتقانته. - الكتاب العربي الإلكتروني أمّا المشروع الأخير الخاص بإنتاج الكتب الإلكترونياً، فعنه يقول: "مع تطور التقنية الإلكترونية، وريادة شركة أبل في إنتاج لوحات إلكترونية مخصصة على نحو رئيسي لقراءة الكتب والصحف، عرضت علينا شركة (الكتاب العربي الإلكتروني) الإنفاق إلى هذا العالم الجديد، ولم يكن وقتها قد أنتجت أي شركة أخرى لوحدة قراءة، لكن عددها الآن يزيد على الثلاثين، تعمل وفق لغات مختلفة أهمّها (ISO) لشركة أبل، وأندرويد) وغيرها لشركات أخرى. لم أتردد لحظة في مواكبة التقدم العملي الذي أرى أنّه يمكن أن يفيدنا نحن العرب، ويتم على أيدي عربية، وهذا هو الأمر الأهم هنا. الإبداع الجديد المهم الذي أنجزته شركة (الكتاب العربي الإلكتروني) التي يساهم في قسم كبير من رأس المالها رجل الأعمال الكويتي السيد مبارك الرفيفي الذي أفسح دخوله هذا المجال في الشركة تقديم ضمادات إضافية للقراءة الذين يودون إبتكاع النسخ الإلكترونية هو تصميمها تطبيق قراءة خاصة باللغة العربية. فمن المعروف أنّ الآي باد وغيرها من لوحات القراءة تستخدم تطبيقات (Applications) خاصة بالقراءة مثل (Reader Bluefire, Dlreader, Ibooks), لكن هذه لاتينية، أي أنّها تقلب الصفحة من اليمين إلى اليسار. شركة (الكتاب العربي الإلكتروني) أصدرت تطبيقاً خاصاً للكتب العربية (Reader Ebook Arabic), حيث يقلب الصفحة من اليسار إلى اليمين، ويفعل العكس عند تصفح الكتب اللاتينية". إلى هنا ينتهي كلام الدكتور زياد مني الذي ستطلل تجربته

موضعاً للإختبار خلال الشهور وربما السنوات القليلة المقبلة حتى نتبين بالفعل مدى إمكان نجاح مثل هذه التجربة في عالمنا العربي. ولا يبدو أنّ مشروع قادمُّ سيكون الأخير. فقد أعلن الكاتب اللبناني السماح إدريس إخيراً كذلك عن توقف الطبعة الورقية من مجلة الآداب بعد 60 عاماً من صدورها. وأكّدت رنا إدريس، مديرية دار الآداب، أنّ قلة الإقبال على القراءة الورقية مقابل القراءة الإلكترونية عقب الثورات هو السبب في هذا القرار.

- الخط العربي والثقافة الرقمية ومنذ بدأ التفكير في موضوع النشر الإلكتروني ودوره المرتقب في إحتلال مكانة الكتابة الورقية والمطبوعة. وأنا أُفكّر في مستقبل بعض الفنون مثل فن الخط الذي كان حتى عهد قريب الوسيلة الوحيدة التي نعرفها للكتابة، وبسببيها راج فن الخط العربي كواحد من أبرز روافد الفنون المرتبطة بتراث اللغة والثقافة العربية والإسلامية. فالخط، والخط العربي ربما على نحو خاص، هو حامل لأبعاد ثقافية وإجتماعية وحضارية تشتهر فيها الأمة والمجتمع كلّه. كما أنّ الخط الذي يكتب به كل مذماً حتى بعيداً عن الخط كلون من ألوان الفن تختلف أشكاله مع اختلاف كل فرد أو ذات نفسية في صياغته وتشكيله، إذ أنّه وكما يشير معموم خلف "هناك جزء عميق وكبير متعارف عليه يمثل القيمة الكلية أو الفلسفة الكلية والمطلقة للمجتمع، فإن كل تشكيل لحرف معين، يبعد عن الخصائص النفسية الداخلية (بطرق معروفة لدى أهل الإختصاص)، فإنّ الحرف أو الخط في حالته المثالبة والمطلقة، لا يحمل خصائص الفرد فقط، وإنّما يحمل الإنطلاقة الحضارية للأمة جميماً، وهو ما نجده في القواعد والمعايير والقوانين الأساسية التي يقوم عليها فن الخط". واليوم أصبحت فكرة الخطوط المرسومة باليد في سبيلها للإنقراض مع التزايد المستمر لاستخدام الحاسوب الآلي وأجهزة الطباعة الآلية، فهل ستتسرب الثقافة التقنية والإلكترونية في تغييب هذا الفن للأبد يوماً ما؟ لا يمكن الإجابة عن السؤال بشكل مطلق بعد، لأن فن الخط العربي له رواد لا يزالون يمارسونه، ويتعلّم عليهم دارسون محبون لهذا الفن الذي يمثل خصوصية من خصوصيات ثقافتنا، ويجد هو لدى ثقافات عديدة. صحيح أنّ أجهزة الطباعة اليوم تمتلك جميماً أنواعاً مختلفة من الخطوط عن طريق برامج جاهزة لتلك الخطوط وبينها بعض الخطوط الكلاسيكية مثل الكوفي والأندلسي التي تحتوي على إمكانات جمالية وتعبيرية وزخرفية تعبر عن التغيرات الثقافية التي مررت بها الحضارة العربية. لكن تظل تلك الخطوط في النهاية مجرد برامج نادرة لاستخدام. كما أنّ نظم التعليم المختلفة وبينها حتى النظم الغربية المتقدمة التي تعتمد على استخدام الطلبة المبكر للحواسيب الآلية تلزم هؤلاء الطلبة بتعلم الكتابة بخط اليد باللغات المختلفة التي يتعلّمونها. لكن الأخرى بنا أن نحافظ نحن على ارتباط الأفراد بلغتهم قراءة وكتابة وتأكيد قيمة الخط العربي لدى الأجيال الجديدة، إذ وكما يقول خلف مرات أخرى: "إنّ الخط العربي هو تشكيل

خطي، حامل لقيم صوتية، لكن صياغته في الواقع، تضيف إلى هذه القيمة الصوتية قيمة فكرية وحضارية وأخلاقية وفلسفية، فإذا أخذنا على سبيل المثال الحرف (أ)، كتعبير لصوت معين، فإنّ^٣ وقوفه واستناده إلى السطر عمودياً دون سائر الحروف، بالإضافة إلى وجوده الدائم والأبدي في مقدمة الكلمة، يضفي عليه خصائص وجданية تنتمي إلى ثقافتنا، لأن يكون هو الداعمة الأساسية في بناء الأحرف كلها، إذ يمثل مفهوم القيام على الأمر، والسنن والدعم والبداية المكرسة لما هو علوي وسماوي، آن من الغيب، ونازل منه، أو متنزل منه، ومن هنا يأتي حضوره في بداية الكلمة، أو في وسطها، حيث يلعب دور الداعمة الضرورية لغويًا^٤ وفكريًا^٥ للكلمة، لذا نجد أنّ^٦ هذا الحرف يتكرر كثيراً في الخط العربي والكلام العربي. أمّا الحروف الأخرى دون الألف، فنجد أنّ^٧ها تعتمد بشكل أساسي على الإنحناء، كحروف، ص، ض، ع، و، ح، ف... وإنحناء يعبر عن المرونة والطوعية، كما يعبر عن الإحتواء الذي يمثله الحصن المحتاج إلى الإمتلاء بالشعور والإحساس بالرخاء، فهو بحاجة إلى الآخر، أي الفرد القارئ، الذي يمثل جزءاً لا يتجزأ من الحرف نفسه، والذي يشعر بالحنين نحو الحرف، من دون أن يفهم أنّ^٨ سبب ذلك هو النداء العميق الذي يخرج من الإنحناء الآسر، بصورة فكرية، أو لا شعورية، لا نقوم بفهمها إلا على شكل حنين". ولعل هذا ما يثير أيضاً تأثير بعض وسائل التواصل التي مثلت جزءاً^٩ مهماً في الثقافات جميعاً هي المراسلات والرسائل.

ارتئينا أن نعزز موضوعنا بمقال يرتبط في فحواه مع الموضوع المرفق آعلاه:

الصحافة الورقية.. هل تبقى؟ علي غازي العداوي رغم الثورة التكنولوجية المتتسارعة وازدياد أعداد المنضوين تحت رايتها، إلا أنّ^{١٠} المطبوع الورقي لا تزال له نكهة خاصة، وقُرّاء لا يستغنون عنه، ومعلنٌ يجد في صفحاته الواسعة ما لا يجده في صفحة الجريدة الإلكترونية التي لا تتعذر مساحتها مساحة سطح شاشة الكمبيوتر.. ولكنّ^{١١} هذا التفوّق الورقي لا يعي المطبوعات الورقية من تطوير نفسها ومواكبة متطلبات الأجيال الجديدة التي لم تتعمّد على القراءة من الورق، فمعظم المطبوعات الورقية صار لها موقع على الشبكة العنكبوتية يستطيع القارئ الإلكتروني من خلالها التواصل معها والتفاعل مع ما تنشره سلباً أم إيجاباً. وهذا يعني أنّ^{١٢} المطبوع الورقي ليس في منأى عن هذه التقنية التي تضيف له من دون أن تفقده جمهوره الذي لا تتوافر لديه ميزة التواصل مع الإنترنت، والأهم أنّ^{١٣}ها لا تفقده المعلن الذي يُعدّ^{١٤} سرّـ بقاء هذه المطبوعات واستمرارها. آخر الإحصاءات تؤكّـد أنّ^{١٥} مستخدمي شبكة الإنترنت في الولايات المتحدة حوالي 67 في المئة، وفي أوروبا نحو 35 في

المئة، أمّا في الشرق الأوسط، فلا تتجاوز نسبة مستخدمي الإنترن特 5% في المئة، أي إنّ غالبية العظمى من شعوب الشرق الأوسط لم تدخل عالم الإعلام الإلكتروني لأسباب واعتبارات لا مجال للخوض فيها في هذا المقام. أخيراً، يبدو أنّ هناك توجّهاً لدى الجهات الرسمية في كثير من بلدان الشرق الأوسط، والعربية منها خصوصاً، إلى وضع تشريعات رقابية على النشر الإلكتروني، تصل إلى حدّ حجب بعض الواقع غير الملزمه بهذه التشريعات، يعني أنّ حرّيات التي تميز بها الصحافة الإلكترونية - حتى الآن - قد تواجه معوقبات في المستقبل القريب إذا ما أقرّ تشكيل إدارات تراقب النشر الإلكتروني.